شتات .. وبقايا أرواح

دنوت من الباب بعجلٍ، قرعته وانتظرت المغيث بلهفة وترقب، البرد جمّد يديّ، وشعري الطويل عبثت به رياح كانون الهوجاء، فكان أشعثا ككومة من القش اليابس.

السماء مكفهرة وسوداء، غضبى وحبلى بالرعب منذ شهور قليلة مضت، جلتُ بعينين مذعورتين حولي، واشرأب عنقي نحو السماء، فرأيت المغيب وقد وشّح سوادها بلون برتقالي أثار مكامن الرعب في أعماقي. قرعتُ الباب مرة ثانية وثالثة، وآلمتْ يدي صلابته، فتأوهتْ أعماقي قهراً وبرداً وجوعاً. أعدتُ محاولتي، وكنت بينما أنتظر الجواب أنفخ أنفاسي بين كفيّ، فيسري فيهما دفء لذيذ يدوم للحظات ثم يتلاشى.

ضممت الطفلين إلي ولذت معهما بالجدار لَوْذَ حمامة تستشعر الدفء أنّى يكن. البرد تمكّن من الوجنات الصغيرة الرقيقة، فبدتْ لي شاحبة وكئيبة، العيون كَسلى ومرهقة ويتقد فيها الخوف والذهول، وأسمال بالية كَسَتْ الأجساد النحيلة وبالكاد صدّتْ بعضاً من صقيع لا يرحم.

لا استجابة من خلف الباب الأصم، فعاودت قرعه بقوة أكبر، وناديت بصوتي الضعيف المختنق، وضربته برجلي مرّات ومرّات، لعل من لا يسمع أن يسمع ندائي ويلبي استغاثتي ويسند ضعفي، فكانت محاولاتي خائبة، يأستُ، فافترشت الأرض وأسندت ظهري إلى الجدار خلفي، وضممت الطفلين إلى صدري أكثر.

- عطشان.

توسلني أحدهما، فألقمته زجاجة الماء حتى ارتوى، تحسّست الأيادي الصغيرة، فكانت باردة كلوح ثلج، وقاسية كالخشب، ضممتهما، وازددت انكماشاً عليهما لأعطيهما بعض دفئي، وما بقي عندي من حنان وأمان. نجونا من الموت هذا اليوم، ومنذ الصباح وأنا أجول بذعر من مكان إلى آخر بحثاً عن من يغيثني، وهذا الباب هو آخر ما أعرف في هذه المدينة، كل من طرقتُ بابه كان قد نزح مع النازحين، ولم أجد من يسعف ضعفي، ويلملم شتاتي، ويحمي طفليّ من البرد والتشرد والجوع والخوف، وقريبي خلف هذا الباب الموصد هو أملي الوحيد، وإلا سيكون الشارع مأواي لليال أخرى، وسيكون طعامي وطفليّ مما جمعته من خرائب هذه المدينة المنكوبة.

أغمضت عيني المرهقتين، حاولت استحضار السكينة، فأتتْ متهادية نحوي، تسلل الخدر إلى جسمي ونفسي، وغصتُ في أعماقي الموحشة أحتمي من كل هذا الموت والرعب حولي، هناك سطعَ نور جميل، عاينته بدهشة، وإذ هو نور المصباح الكبير في غرفة الجلوس في بيتي، سمعتُ صوت موسيقى تنداح هادئة، وتنثر حولها الكسل والاسترخاء، شاهدت نباتاتي العزيزة تحيط بي كما لو كانت حديقة غنّاء، وباب الشرفة الكبير كان مفتوحاً فبدتْ (حمص) من خلفه وكأنها لوحة زيت فائقة الجمال والنقاء والهدوء، ومفعمة بالحب والحياة كسابق عهدها. وكانت مائدتي الكبيرة تتوسط المكان وتزخر بمالذّ وطاب من طعامي، وحولها تجمهر الأحباب. الكل يتحدث ويثرثر ويضحك ويبتسم ويأكل، هذا أبي وتلك أمي وهؤلاء إخوتي، وذاك الحبيب جالس في كرسيه ينفث دخان سجائره بسكينة وهدوء، ويحاورني بعينيه حواره العذب، فتستطيب روحي وتهيم فرحاً وسعادة، أين هم الآن..؟، وأين (حمص العدية)..؟، وأين أنا..؟.

أزيز رصاص متقطع أيقظني من حلمي وأعادني إلى حيث أنا أمام هذا الباب الموصد، وتراءى لي أشباح بشر تركض وتختبأ وتتوارى في عتمة المساء، وفي السماء كانت الغيوم سوداء وكأنها قطعان من أبقار تجري على عجل هرباً من خوف يلاحقها.

وسرعان ما هبط الليل الشتائي، وغشا صمت ثقيل المكان حولي. بعض المارة كانوا يركضون مسابقين الموت المتربص بالجميع هنا، ولا يلتفت أحد منهم لندائي الضعيف، والكثير كان متواري خلف بابه يأكله الصمت كما الخوف. سمعت صوت أقدام تقترب مني، نبهتْ بقايا روحي المهترئة وهيأتني للمواجهة، اقترب صاحبها أكثر، وبدا وكأنه يتلمّس طريقه بحذر شديد، ضممتُ الطفلين ولذت بالصمت، والدموع كانت تسفح ذاتها على خدي في عتمة الليل تلك، كدت أن أصرخ واستغيث، لكن خوفي قد جمّد الحياة في حنجرتي وأخرس لساني، سمعت صوت (نحنحة) خفيفة، تلتها سعلة مكتومة، فابتسمت، وانفرجتْ أساريري بفرح، أعرف هذا الصوت حقّ المعرفة ولا تخطأه أذناي المرهفتين أبداً. اقترب حتى رآني، فجفل مني خوفاً وكاد أن يهرب بعيداً لولا إني قد ناديته باسمه بصوت مخنوق من العبرات، فعاد نحوي مرحباً بصوت هامس كالفحيح، ويديه كانت تفتح الباب باضطراب وتوتر شديد.

لم يسألني وأنا لم أشرح وأعلل وقد بدا كل شيء واضحاً له، دخلت البيت وغمرتني سعادة استباحت ما بقي من دمع في المآقي، ووقف هو أمامي مطرقاً محزوناً يقاوم دمعه ويتركني لبكائي ونحيبي ليغسل قلبي ويجلو روحي، وكان الصمت يسترخي ثقيلاً فوقنا، قال لي بعد برهة:

- لا عليكِ، أنتِ وأطفالك في أمان الآن، ادخلي هذه الغرفة حتى أوقد ناراً وأعد طعاماً.

تلمّس طريقه نحو المطبخ، وأنا دخلتُ الغرفة وانكفأت في إحدى زواياها مع الطفلين، سمعت صوت جلبة، وشعرت بحرج أذابني في ثيابي، لحظات طويلة مرَّت حتى عاد وقال لي بصوت منخفض:

- سأغيب لجلب الطعام، فلا طعام عندي منذ أيام مضت.

رفضت ذهابه وسط هذا الموت المتربص في كل مكان، فابتسم وقال:

- لا عليكِ فقد اعتدنا هذا الحال، خذي راحتك، فالبيت بيتكِ، وأنا لن أتأخر.

وغادر بيته متسللاً ومتلفتاً بحذر مما حوله، خالجني شعور بالخوف والوحشة، وبدتْ لي الجدران التي آوتني منذ قليل وقد أصبحت كألواح من الجليد تذوب وتكشف ضعفي وقلة حيلتي، ومن جديد ضممتُ الطفلين ألَيَّ، ورحتُ أنفخ في كفيَّ أنفاسي الحارة لألتمس بعضاً من دفئها.

انتصف الليل وغفا الطفلان، وأنا كنتُ أتخبط بين النوم واليقظة، ووقد تسلل ضوء الفجر من النوافذ وشقوق الجدران وصاحب البيت لم يكن قد عاد بعد.